كلمة تلامذة الفقيدة

ألقتها الأستاذة الدكتورة نجاح محمد

بعد إحالة العزيزة المرحومة الفاضلة الأستاذة الدكتورة ليلى الصباغ إلى التقاعد قبل سنوات، هي والعزيزة الرائعة الأستاذة الدكتورة نجدت خماش حفظها الله وأمدّ في عمرها، قرّر قسم التاريخ، مشكوراً، القيام بتكريمهما. وفرحت حين جرى اختياري للإسهام فيه بكلمة عنها باسم تلاميذها. آنذاك، حين ألقيت كلمتي بتكريمها كانت جالسة أمامي، وأذكر تمامًا انطباعاتها. أما اليوم فأنا أقول كلمتي ولا أراها، رحلت، أشعر بالأسى، ولكن يعزيني قليلًا أنّه كان لي شرف الإسهام في تكريمها في حياتها، وفي تكريمها بعد مماتها، ممّا أتاح لي الفرصة للتعبير ولو عن جزءٍ صغير ممّا أكنّه، ويكنّه تلاميذها لها، من محبة واحترام وعرفان بالجميل.

صحيح أنّ التكريم هو فعل تعبير عن مشاعر التقدير والاعتزاز لأشخاص المكرّمين، لكنه بالدرجة الأولى هو فعل رصد ووعي والتزام بالقيم المعرفية العلمية والتربوية الوطنية والإنسانية، التي كُرمت بهم وكُرموا بها.

هذا هو تكريمنا للسيدة المرحومة الفاضلة الأستاذة الدكتورة ليلى الصباغ. نأمل: كلّ الرحمة لها وسكنى الجنّة، وكلّ العزاء لأهلها الكرام وللسادة في مجمع اللغة العربية وفي جامعة دمشق، ولهم كلّ الشكر والتقدير على مبادرتهم الطيبة هذه. كلّ العزاء لكم جميعًا ولكلّ من عرفها فأحبها فقدّرها، والعزاء لكلّ من تعلم منها وأدرك كم خسِرنا برحيلها، وأنا ممن تعلّم وأخذ منها الكثير من الدروس.

الدرس الأول كان عن طريق ما يدعى اليوم بـ "الاستشعار عن بعد". كانت مديرة لثانوية البنات، وكنت طالبة في دار المعلمات المجاورة لهذه الثانوية آنذاك.

كنت أراها يوميًا تقريبًا وهي تمر صباحاً، وكثيرًا ما كنت أسمع همسات طالباتها يخبرن بعضهن: "هَيْ المديرة، هَيْ المديرة"، ولم أكن لِأَمَلَّ من تأمُّلِها لأتمتم في داخلي دائماً: "ياسلام". سبحان الله: كانت سمات الجدّية، والحشمة، وقوة الشخصية، في مرآها واضحةً جدًّا. وأصبحتْ عن بعد دون أن تدري، ودون قصد، المثال المحتذى، وكان هذا الدرس الأول.

كنا حينها في مرحلة الانفصال، وقد زاد إعجابي بها بعد ما رُدِّد عن موقفها الدفاعي عن الوَحدة بين سورية ومصر. ومرّت الأيام، أصبحتُ طالبة في قسم التاريخ، ثمّ معيدة وأوفدت إلى فرنسا للتخصص، وحصلت على دكتوراه دولة من السوربون، وعدت وكم أسعدني اللقاء بها. كانت تدرّس، أهم مادة في القسم، برأيي على الأقل، وهي مادة "منهجية البحث التاريخي". وكتابها من أهم ما كتب بهذا الشأن. وبعقلها المنفتح كانت تحرص، أولاً، على التعريف بجميع المدارس والاتجاهات الفكرية في رؤية التاريخ وفي تفسيره، المادية والمثالية، الماركسية والوضعية وغيرها، ودون أن يفوتها التركيز على الدور الريادي للمؤرخين العرب وعلى رأسهم ابن خلدون. وتحرص، ثانياً، على التطبيق والتمرين العملي للطلاب على ما درَّسته لهم نظرياً، فكان هذا الدرس الثاني.

ماذا عن الدرس الثالث؟ كنت أظن، في عامي الأول من ممارستي للتدريس أنّ معيار النجاح هو مقدار كمّ ونوع المعلومات المعطاة إلى الطلاب. ولتحقيق هذا المعيار تعبتُ كثيرًا وأعطيتُ ساعات إضافية لأنهي المقرر بكماله، فكان ألمي كبيرًا من نسبة النجاح المنخفضة لديهم، على عكس ما كنت أتوقع، وكأن جهودي كانت بلا جدوى. أتيت الغرفة و،سبحان الله، لاحظتِ الدكتورة ليلى فورًا أني قلقة ومنزعجة جداً،

فسألتني: خَيراً، د. نجاح ماذا بك؟ شرحت لها الأمر، فهزّت برأسها مبتسمةً وقالت: مررتُ تمامًا بما أنت فيه الآن، ثم أدركتُ أنّ طريقة التدريس في الجامعة ليست امتدادًا لطريقة التدريس في المرحلة الثانوية، وإنما هي قائمة على البحث والتحليل العلمي لقضايا معينة تُفيد المجتمع والوطن والأمة، وبالطبع يجب أن تكون من مفردات المقرر في الكتاب الجامعي وليس كلّ ما فيه. وبعد مدة اكتشفت أنّ كلامها هذا، وبمنتهى الصدق، قد جاء منسجمًا مع أحدث مستجدات العملية التربوية والتعليمية الصحيحة، العالمية والعربية، وأدركت أنّ عليّ متابعة هذه المستجدات باستمرار للاستفادة منها في التدريس، وهذا ما أقوم به منذ ذلك الحين، فكان هذا الدرس الثالث.

والآن ماذا عن الفوائد التي حصلتُ عليها في خلال قراءاتي المعمقة للمؤلفات القيّمة للأستاذة الدكتورة المرحومة ليلى الصباغ؟ أكتفي بذكر أهمها:

أولاً)- على الصعيد التاريخي المعرفي: اكتسبتُ منها إسهامات في حلول لإشكاليات حتى فيما يخص التاريخ العربي القديم، وليس الحديث والمعاصر فقط، الذي هو مجال تخصصها. وقد أثبتت صحّة هذه الحلول علوم الإنسان (Anthropology)، كعلم الآثار واللغات والتاريخ وغيرها. منها، وفق تسلسلها التاريخي: عروبة السومريين قومًا وحضارةً. سقوط نظرية الأقوام السامية-الحامية-اليافثية، لغويًا وعرقياً، التي كشف الأستاذ الدكتور نعيم فرح أنها نظرية صهيونية. ورأت الأستاذة الدكتورة ليلى الصباغ أنّ تسمية هذه الأقوام بـ"العربية"، هي، "الأقرب للصحة والشمول والعمق في فهم التاريخ العربي واستطالته، وفي إدراك الحضارة العربية وتواصلها عبر العصور". واستفدتُ من رؤية المرحومة أيضاً، في كتابها القيّم "الجاليات الأوربية في بلاد الشام في العهد العثماني"، بما يتعلق بإشكالية تقويم الحكم العثماني، المتمثّلة باختلافات الباحثين حوله، كلٌّ وفق مرجعيته

الثقافية. حول ذلك رأت الأستاذة الدكتورة ليلى الصباغ أنّ ما قدّمه هذا الحكم من امتيازات لليهود وللقوى العظمى الاستعمارية "كانت سببًا من أسباب القوة الاقتصادية لليهود في بلاد الشام، ومن ثَمَّ في تدعيم أحلامهم حول إنشاء وطن لهم على الأرض الشامية... وهذا لم يحدث في الماضي". هي جريمة بدون شكّ ولكن لننتبه إلى أنّ من قام بها هي الأسرة العثمانية الحاكمة باستثناء السلطان عبد الحميد الثاني، الذي رفض عرض هرتزل بهذا الشأن، والشعب التركي براء منها بالتأكيد، إذ كان مقموعًا ولا رأي له كبقية شعوبها التي كانت تابعة لها.

ثانياً)- على الصعيد التاريخي المنهجي: الاستفادة من ثلاث خصائص رئيسة تميّزت بها أبحاث الأستاذة الدكتورة ليلى الصباغ: الأولى وجود منهجية تأريخية واضحة: خطّةً، وتوثيقاً، وشموليّةً، وموضوعيّةً. الخاصة الثانية هي وجود توجّه وطني قومي عروبي إسلامي إنساني دون أيّة خلفيات أو مواقف ذهنية تعصبية سابقة، تُفسر الحدث وضعيًا أو تحليلياً. الخاصة الثالثة هي وجود رؤية فكرية مستقلّة تدعمها نزعة إنسانية رائدها الإيمان بالعقل الإبداعي الحرّ. إعجابي بهذه الخصائص هو الذي يفسّر أنّني لا أرى نفسي في أحيان كثيرة إلاّ وأنا استشهد بأقوالها وأفكارها في محاضراتي التدريسية، ومنها:

١- تُنبّه القارئ لضرورة البحث عمّا وراء ظاهر النصوص قائلةً: "لا تكتفِ، قارئي، بما يبين للعين فحسب، الخفيُّ عنها في معظم الأحوال هو الهام والخطير والكبير، وهو الأصيل والحقيقي".

٢- تؤكّد في رؤيتها الشمولية لكارثة فلسطين أنّها أكبرُ تحدّ للوجود العربي، مركّزةً على كلّ أبعادها الدولية، وبخاصة السياسية والاقتصادية، ومنها دور البترول العربي في اقتصاد وصناعة وحياة الغرب الأوربي والأمريكي. ورأت المرحومة في الحروب العدوانية

لتحالف الاستعمار الغربي والصهيونية، وبخاصة على مصر والشام، "مظهرًا من مظاهر الرغبة في القضاء على الحركة العربية وتفتيت تيارها القوي، أو على الأقلّ إعاقة تقدمها"، مؤكّدةً أنّ حرب تشرين عام ١٩٧٣ كانت "الردّ العربي".

٣- تقول في رؤيتها المنطقية الإنسانية لدور المرأة والرجل: "الهدف الإنساني الذي يسعى إليه الطرفان على هذه الأرض واحد، والطريق واحد، والتاريخ واحد من بناء الاثنين معاً، وبقدْرٍ متساوٍ من الجهد والعطاء والعمل، لا فضل لواحد فيه على الآخر، ولا قيمة إنسانية لواحد منهما على الآخر". إنّها المساواة التكاملية.

٤- حول علم التاريخ تؤكّد أنّه عطاء حضاري عربي-إسلامي أصيل اسمًا وأصلًا وفروعاً، تأريخًا ومنهجية، وأنّ القرآن الكريم هو "تاريخ العرب الكبير" الذي لم يَحْوِ ماضيهم فحسب بل ماضي الوجود الكوني، وماضي الوجود الإنساني، وحاضر الحدث الضخم الذي يعيشونه، وخطَّ المستقبل الذي يأملونه".

٥- أخيرًا لنسمع ما ذكرته الأستاذة الدكتورة ليلى الصباغ في كتابها "المرأة في التاريخ العربي القديم"، حول الفئة الحرّة من نساء العرب، المدعوّة بـ"المرأة البرزة" أي "المرأة السيدة". تقول: هي المرأة "التي تحدّثت عنها كتب التاريخ والأخبار، وهي المرأة المتميّزة الحصيفة، العاقلة، الحكيمة، القائدة، التي عاشت لمجتمعها الأسري الأصغر ولمجتمع قومها الأكبر في آن واحد... هي التي ربّت الكُمَّل من الرجال، وزودت المجتمع بفضليات النساء... هي المرأة القويةُ الذات، المكينة الشخصية التي عاشت مجتمعها وقضاياها الكبرى... هي التي تذبّ عن كرامتها وكرامة قومها وتثور على الطغيان، وتعتزّ بذاتها". نعم إنّها المرأة الحرّة البرزة التي عرفها العرب القدماء، والتي ربتهم رجالًا حقيقيين بَنَوا دولتهم القوية الحضارية في هيمنتها العالمية شرقًا وغرباً، قديمًا ووسيطاً.

أنهي الكلام بالتأكيد أنّ الأستاذة الدكتورة ليلى الصباغ هي المرأة البرزة النادرة التي نحتاج إلى مزيد منها اليوم. كلّ المحبة والتقدير لها ولعطاءاتها. أشعر أنّها قد رحلت وارتاحت من معاناة آلام ما تعيشه سورية الحبيبة اليوم من تآمر رهيب. بكلّ خشوع نتمنى: الرحمة والجنّة لها، والخلاص لسورية، والعزاء للجميع.

المصادر المعتمدة:

١- ليلى الصباغ: **دراسة في منهجية البحث التاريخي**، مطبوعات جامعة دمشق، ١٩٨٨- ١٩٨٩.

٢- ليلى الصباغ: **المرأة في التاريخ العربي، في تاريخ العرب قبل الإسلام**، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٧٥، وبخاصة المقدمة وص ٤٦٤-٤٦٦.

٣- ليلى الصباغ: **تاريخ العرب الحديث والمعاصر**، مطبعة ابن حيّان، دمشق، ١٩٨١- ١٩٨٢.

٤- ليلى الصباغ: **الحضارة الغربية الإسلامية والتاريخ** (أحد بحوث المؤتمر العالمي لتاريخ الحضارة الإسلامية الذي عقد في دمشق فيما بين ٢٠ و٢٦ نيسان ١٩٨١، والتي نشرت في مجلّد من قبل وزارة التعليم العالي، ص٢٨١- ٣٠٨).

٥- ليلى الصباغ: **الجاليات الأوروبية في بلاد الشام في العهد العثماني**، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٩.